تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة السادسة

داعية السجن

المقدمة

- في قصة يوسف عليه السلام، نجد نموذجًا خالدًا للعفة والصبر، حين وقف أمام إغراء امرأة العزيز، مفضلًا السجن على معصية الله. لم يكن الأمر مجرد رفض للذنب، بل كان اختيارًا واعيًا لطريق العزة، مؤمنًا بأن الحرية الحقيقية تكمن في طاعة الله، وأن الأسر الحقيقي هو أسر القلب بالشهوات. فالسجن في سبيل الله رحمة، أما الحرية في معصيته فهي ذل ومهانة .

رغم أن امرأة العزيز كانت تملك السلطة، فإنها بدت ضعيفة أمام استقامة يوسف، الذي استعصم بالله، فأصبحت هي الذليلة، عاجزة عن إجباره على المعصية. وكما هي سُنّة الطغاة حين يفشلون في مواجهة الحجة، انتقلت إلى التهديد بالسجن، كما فعل فرعون حين عجز عن الرد على موسى عليه السلام، فلجأ إلى التهديد قائلاً : { لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ } هكذا يفعل الضعيف حين لا يجد سبيلًا للحوار بالحكمة .

وتتجلى هذه العزة في موقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذي تعرض للسجن مرارًا بسبب وشايات أعدائه، لكنه رغم ضيق العيش والحرمان، عاش أطيب الناس عيشًا، وأقواهم قلبًا، وأشرحهم صدرًا. وصفه تلميذه ابن القيم قائلًا : " كنا إذا اشتد بنا الخوف وضاقت بنا الأرض، أتينا إليه في محبسه، فما هي إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة" وحين سُجن، قال كلمته الشهيرة : " ما يفعل أعدائي بي؟! أنا جنتي في صدري، وبستاني في قلبي، أينما ذهبت فهو معي. إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن نفوني فنفي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة". لقد كان سجين الجسد، لكن قلبه كان حرًا، كما كان حال يوسف في سجنه، الذي كان في الحقيقة نعيمًا، لأنه كان في سبيل الله .

- ومن هذا الدرس العظيم تبرز رسالة لكل إنسان: لا مساومة على الشرف والكرامة مهما كانت المغريات، فالأموال والوظائف والمناصب لا تساوي شيئًا إذا كانت على حساب المبادئ. لا يجوز التنازل عن الدين من أجل مكاسب دنيوية زائلة. وكما قال يوسف عليه السلام {رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ} قارن ذلك بما نراه اليوم من شباب يلهثون خلف الشهوات، مستعدين للتنازل عن دينهم وأخلاقهم في سبيل متع زائلة، فيقول أحدهم : " أنا مستعد أن أفقد حياتي من أجل مقابلة فنانة أو فتاة " ، بينما يوسف كان مستعدًا لفقد حريته حفاظًا على دينه وشرفه .

إن الفرق شاسع بين من يسعى لمرضاة الله ولو كلفه ذلك السجن، ومن يتهافت على الشهوات ولو قادته إلى الضياع. فالعبرة ليست بالمكان الذي يكون فيه الإنسان، بل بالحالة التي يكون عليها قلبه. فمن كان مع الله، فهو في جنة حتى لو كان في السجن، ومن ابتعد عنه، فهو في شقاء حتى لو كان في قصر.

عفة اللسان وعظمة الاستعانة بالله: دروس من ثبات يوسف عليه السلام

- في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى أسمى معاني العفة والطهارة، ليس فقط في أفعاله، بل حتى في ألفاظه. حين قال : {رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ} ، تجنب حتى ذكر لفظ الزنا، كراهيةً له وتنزهًا عن مجرد التلفظ به. وهكذا يكون الشرفاء، تحرص ألسنتهم على الطهر كما تحرص جوارحهم، فيلجؤون إلى التورية تجنبًا للخوض في ألفاظ الفساد، حتى لو كانوا في أشد الاحتياج .

- وفي موضع آخر، تتجلى حقيقة العبودية الصادقة والافتقار إلى الله، حين قال يوسف : { وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ } . إنه اعتراف صريح بأن الثبات على الطاعة ليس بجهد الإنسان وحده، بل هو محض توفيق من الله. فإذا لم يثبتنا الله، فلن نثبت أبدًا. وكما قال الشاعر :

" إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجني عليه اجتهاده"

- فكل أسباب التحصين والمجاهدة بلا توكل صادق على الله قد تنقلب على صاحبها، لأن الإنسان ضعيف بنفسه، قوي بربه. حتى الأنبياء لا يستغنون عن عون الله طرفة عين، فكيف بغيرهم ممن تحاصرهم الفتن وتراودهم الشهوات؟ من صدق في الالتجاء إلى الله نجّاه، ومن اعتمد على نفسه هلك .

- ويأتي وصف الجهل هنا بمعناه الأعمق، فليس الجاهل فقط من لا يعلم الحكم، بل هو من يجهل عظمة الله، وحقارة المعصية، وهول العقاب. الجاهل هو من لم يدرك قدر الله، ولم يستوعب ضعف نفسه وحاجته الدائمة إلى ربه. ولهذا قال النبي ﷺ : " أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية " فكلما ازداد العبد علمًا بالله، ازداد خوفًا منه وحرصًا على طاعته، لأن العلم بالله يملأ القلب مهابة، والعلم بحقائق الآخرة يجعله أكثر حرصًا على النجاة.
- وهكذا، نجد أن كل من عصى الله إنما عصاه بجهل، ليس جهل الأحكام فقط، بل جهل بحقيقة الدنيا والآخرة. كما قال تعالى : {مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ } . فالعلم بالله هو الحصن الأعظم من المعاصي، وقد يكون طريقًا غير مباشر للتوبة دون حتى أن ندرك. فكثيرون لم يتركوا معاصيهم عن تخطيط، بل لأن قلوبهم امتلأت بمعرفة الله، فعافوا ما يسخطه من تلقاء أنفسهم .

لذا، من أراد أن يحارب معصية، فليتعرف على ربه أكثر، وليتعلم عن نبيه، وليقترب من حقيقة الدار الآخرة، فيجد نفسه وقد انصرفت عن الذنب دون جهد يُذكر. إنها المواجهة غير المباشرة للمعاصي، حين يكون العلم نورًا يمحو الظلمة قبل أن تدرك كيف انقشعت.

سرعة الاستجابة وعظمة الحفظ الإلهي

- حينما دعا يوسف عليه السلام ربه، جاء الرد سريعًا، فقال تعالى : { فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ } هذه الفاء في { فَٱسْتَجَابَ } تدل على السرعة، فالاستجابة جاءت عاجلة لقوة الاضطرار، فكلما كان الدعاء ممزوجًا بالخضوع والافتقار، كلما كان الجواب أسرع وأعظم. فليس تأخر الإجابة إلا لضعف الطلب .

- كان كيد النسوة عظيمًا، لم يعد الأمر مقصورًا على امرأة العزيز، بل تحول إلى تآمر جماعي، حيث تكالبت عليه سيدات القصر والطبقة الراقية، يملكن الجمال والسلطة والجاه، ويحاولن استمالته من كل جانب. لكنه كان في كنف الله، ومن كان الله معه، فمن عليه؟ مهما كانت الفتنة عظيمة، فالله أكبر وأقدر على دفعها .

- وهذا ما نجده أيضًا في قصة مؤمن آل فرعون، الذي واجه جبروت فرعون وجنوده، لكنه أفوض أمره إلى الله، فكانت النتيجة : { فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ } وهذه قاعدة ذهبية تكتب بماء

الذهب: المسألة ليست في حجم الفتنة، بل في قدر العون الذي يصلك من الله. فقد تكون الفتنة عظيمة، لكن الله يحفظك منها، وقد تكون ضعيفة، ولكن إن تخلى الله عنك، سقطت بأهون الأسباب .

انظر إلى الواقع، شاب قد تفتنه نظرة عابرة أو إعجاب على منشور، وفتاة قد يلهب قلبها مجاملة بسيطة، فتظل تفكر وتضطرب، فما بالك بمن تحيط به فتنة كيوسف عليه السلام؟ الفرق في التوفيق الإلهي، فمن اختاره الله لحفظه، فلا قوة في الأرض تستطيع أن تفتنه .

- وهنا تتجلى أعظم معاني سورة يوسف، فهي لا تعرفنا فقط على قصة نبي، بل تعرفنا على الله بأسمائه وصفاته في كل موقف: اللطيف، العليم، الحكيم، السميع، القهار... وكل اسم يأتي في موضعه المناسب. تأمل قوله تعالى : { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } يكفي أن تهمس لله، أن تبوح له بحاجتك دون أن ترفع صوتك، فالله يسمعك في كل وقت، ويعلم ما في قلبك، ولا يرد من يلجأ إليه بصدق.

سجن يوسف: امتحان العزة ومفتاح التمكين

رغم الأدلة القاطعة على براءة يوسف عليه السلام وعفته، إلا أن القوم قرروا سجنه، لا لشيء إلا لإخفاء الحقيقة وإخماد الفضيحة. لم يكن القرار عادلاً، لكنه كان استجابة لرغبة امرأة العزيز وحفاظًا على مصالح السلطة. وهكذا، ظنوا أن السجن سيكون إذلالًا ليوسف، لكنه في الحقيقة كان بداية تمكينه .

كانت المرأة تريد إذلاله، فجعل الله السجن طريقًا إلى عزه، بل صار يومًا ما في مكان العزيز نفسه. وهذا درس لكل من يطلب العزة، فهي عند الله وحده، لا عند البشر، ولا تُنال إلا بصدق اللجوء إليه. كما قال سبحانه " وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ و لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ " .

- قاعدة ذهبية : " من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه " . يوسف ترك الحرام، فرفع الله قدره. ضحى بحريته من أجل الله، فخرج من السجن عزيزًا، حرًا، وزيرًا مقربًا من الملك. فمن أراد الخير، فليترك الحرام ويثق بوعد الله : { وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا } .

أما السجن، فقد كان امتحانًا لصبره ودرسًا لكل مظلوم. يوسف عليه السلام، الكريم ابن الكريم، دخل السجن ظلمًا، فكيف نستغرب أن يصيبنا الابتلاء؟ إذا كان الله قدّر هذا على أحب عباده إليه،

فكيف لا يصيبنا نحن؟! الابتلاء ليس دليلًا على الخذلان، بل قد يكون علامة على الاصطفاء. فالله يختبر عباده على قدر إيمانهم، ومن زادت صلابته، زاد بلاؤه .

وكم من مظلوم في السجون اليوم؟! وكم من بريء يعاني القهر؟! لكن العزاء في سورة يوسف، فهي بلسم لكل مكروب، تذكرنا أن الظلم لا يدوم، وأن الفرج قادم مهما طال البلاء. فالذي أخرج يوسف عليه السلام قادر على إخراج كل مظلوم، وقادر على أن يجعل المحنة سببًا للتمكين والعزة .

دعاء لكل مظلوم :

" يا لطيف، يا من أخرجت يوسف من السجن، أخرج المظلومين وفرّج كربهم، وارفع عنهم الظلم كما رفعت الظلم عن عبدك يوسف عليه السلام".

حكمة الشريعة في العقوبات بين السجن والحدود

حين يُعاقب الإنسان، فإن العدالة الحقيقية تقتضي ألا يستمر المجتمع في معاقبته بعد انتهاء محكوميته. فقد نال جزاءه، ويجب أن يُعامل بكرامة دون تذكيره بجريمته، بل يُمنح فرصة جديدة للحياة. لكن في المقابل، نجد أن السجن عقوبة قاسية لها آثار تتجاوز الفرد إلى أسرته ومجتمعه.

- السجن ليس مجرد عقوبة للفرد، بل ابتلاء يمتد إلى أسرته بأكملها .

فالزوجة تُحرم من معيلها، والأبناء يُحرمون من تربية أبيهم، والوالدان يذوقان ألم الفراق. والأسوأ من ذلك أن السجين قد يخرج من محبسه أكثر فسادًا مما دخل، بعدما عاش سنوات وسط بيئة مليئة بالمجرمين .

ثم هناك العبء الاقتصادي الذي يتحمله المجتمع بأسره .

فالدولة تنفق على السجون من أموال الناس، وتخصص لها ميزانيات ضخمة من طعام وشراب وحراسة، فيُصبح الجميع شركاء في دفع ثمن الجريمة. فأي عدل في أن يُعاقَب المجتمع كله بسبب جريمة فرد؟

- وهنا تتجلى حكمة الشريعة الإسلامية .

فالحدود والتعزيرات عقوبات عادلة وحاسمة، تحقق الردع دون أن تمتد آثارها إلى الأبرياء. فهي رحمة بالجاني والمجتمع معًا، إذ تمنع الجريمة من جذورها بدلًا من إطالة معاناة الجميع. وما أعظم عدل الله حين قال :

{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

فمن ظن أن السجن أرحم من الحدود، فليراجع نظره، فالشريعة جاءت بالرحمة الحقيقية، لا بما يراه الناس رحمة ظاهريًا، لكنه في حقيقته ظلم ممتد.

دخول اليسر مع العسر: تأملات في قصة يوسف عليه السلام

يخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز : { وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ } (يوسف: ٣٦) . تأمل هذا المشهد العظيم، حيث يبيّن لنا القرآن الكريم أن اليسر يأتي مع العسر، حتى وإن لم ندركه في حينه. في اللحظة نفسها التي دخل فيها يوسف عليه السلام السجن، دخل معه فتيان، لم يكن يعلم أن أحدهما سيكون مفتاح خروجه لاحقًا، لكن الله سبحانه وتعالى كان يدبر له بلطفه الخفي .

إنها رسالة عظيمة: مهما اشتد البلاء، فإن الفرج قريب، فقد يكون بجانبك دون أن تشعر، كما كان جبريل وميكائيل وإسرافيل في بيت لوط عليه السلام وهو لا يعلم. هكذا لطف الله بعباده، يدبر لهم الخير وسط المحن، وإن لم يبصروه على الفور .

- أما هذان الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف عليه السلام، فكان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه. وكانا متهمين بمحاولة دسّ السم للملك، فانتظرا في السجن حتى يُحكم في أمرهما. وبعد فترة، رأى كل منهما رؤيا غامضة، فجاءا إلى يوسف عليه السلام يطلبان تأويلها .

قال الأول : { إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ } ، أي أنه رأى نفسه يعصر العنب ليُصنع منه الخمر. وَقَالَ الْآخَرُ { إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ } (يوسف: ٣٦)

وهنا يبرز تساؤل مهم: لماذا لجأ هذان السجينان تحديدًا إلى يوسف عليه السلام دون غيره؟ ولماذا وصفاه بأنه من المحسنين؟ لا شك أن أخلاقه وسيرته داخل السجن كانت تشهد له بالحكمة والصلاح، مما جعله موضع ثقة بين من حوله، حتى في أحلك الظروف .

هكذا يعلمنا القرآن أن الصبر على البلاء، مع الإحسان في كل حال، قد يكون سببًا في رفع البلاء ذاته، كما كان الحال مع يوسف عليه السلام، حيث كان الطريق إلى حريته قد بدأ مع دخوله السجن.

يوسف عليه السلام: دروس في الصبر والتكيف مع القدر

منذ أن دخل يوسف عليه السلام السجن، لم يستسلم للحزن أو اليأس، بل فتح صفحة جديدة في حياته، متقبلاً واقعه الجديد بإيمان وعزيمة. أدرك أن الحياة لا تتوقف عند الابتلاءات، بل هي سلسلة من الاختبارات، وكل موقف يفرض عليه عبودية جديدة لله .

- تعامل يوسف عليه السلام مع السجن كمرحلة قدرية لا يمكن تغييرها، لكنه استطاع أن يحسن استثمارها. لم يكن سجيناً مستسلماً للواقع، بل سجيناً إيجابياً، يرى في سجنه فرصة جديدة للطاعة والصبر. لم يشكُ حاله لأحد، ولم يُخبر السجناء بقصته، لأنه كان يؤمن أن الشكوى لا تغير القدر، بل التوكل على الله هو السبيل للخروج من المحن .

- ظل يوسف عليه السلام ثابتاً في إيمانه، متقبلاً لأمر الله، مستثمراً وقته في الصبر والتعبد، حتى جاء الفرج في الوقت الذي قدره الله له، ليخرج من السجن بعزة وكرامة، بعدما أثبت أن الرضا بالقضاء هو مفتاح الفرج والنصر.

فن التعامل مع الأقدار والإحسان في كل حال

نحن لا نختار الأسئلة التي يضعها لنا القدر، لكننا نستطيع أن نجيب عليها بالطريقة الصحيحة. فالله يخلق ما يشاء ويختار، ولا يد للإنسان في كثير من الأمور التي تحدد واقعه، كأصله وبيئته وظروفه. لكن العبرة ليست في ما لا نستطيع تغييره، بل في كيفية تعاملنا معه.

فمن أحسن الإجابة على امتحانات الحياة، ربح مع الله في كل حال، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ".

- يوسف عليه السلام مثال رائع في هذا الجانب، فقد واجه السجن لا باليأس أو الاستسلام، بل بالصبر والعمل والإحسان. لم يكن سجيناً عادياً، بل كان نموذجاً للإيجابية، فداوم على العبادة، وأحسن إلى من حوله، يعود المرضى، يساعد المحتاجين، يستمع إلى شكاوى المساجين، ويطعم الجائع. لم يكن هدفه مجرد البقاء، بل استثمر وجوده في السجن كفرصة دعوية، فبدأ بكسب القلوب عبر حسن المعاملة قبل أن يدعوهم إلى الله .

- وهذه حكمة لكل من يسعى للتأثير في الآخرين: لا تبدأ بالنصح المباشر، بل اكسب الثقة أولاً، وأحسن إليهم، وحينها يكون لكلامك وقع أعمق وتأثير أقوى. وهذا ما جعل المساجين يرون في يوسف عليه السلام الرجل الصالح، صاحب الفراسة والعلم، فقالوا له { إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٣٦)

- هكذا يُربح الإنسان مع الله، بالإحسان في عبادته، والإحسان في معاملته للناس، مهما كانت الظروف.

- الإحسان سر النجاح في الدعوة

الداعية الحقيقي هو الذي يجمع بين أمرين عظيمين: الإحسان في علاقته مع الله، والإحسان في علاقته مع الناس. فالدعوة ليست مجرد كلمات منمقة، أو خطب رنانة، بل هي نور يضعه الله في القلوب بسبب الصدق في العبادة والإخلاص في المعاملة. هذا النور لا يُشترى بالمال، ولا يُنال بالإعلانات، بل هو منحة إلهية يمنحها الله لمن صدقت سريرته، وصفا قلبه، وأخلص عمله .

- على قدر إحسان العبد في علاقته مع الله، يكون له القبول في قلوب الناس، فالكلمة البسيطة من صاحب القلب الصادق قد تلامس القلوب أكثر من أبلغ الخطباء. ثم يأتي الإحسان إلى الناس، وهو أن يكون الداعية متفاعلاً مع آلامهم، قريباً من أزماتهم، معيناً لضعيفهم، ناصحاً لمحتاجهم. فليس الداعية من يقتصر دوره على المنبر، بل هو من يعيش مع الناس، يشاركهم مشاعرهم، ويكون

قدوة في أفعاله قبل أقواله .

- **وهنا تكمن الحقيقة:** الدعوة ليست محصورة في المنابر أو القنوات، بل في كل لقاء، وكل موقف، وكل تصرف. فقد تهتدي فتاة ليس بسبب موعظة سمعتها، بل لأنها رأت إحساناً وتأثرت به. قد تحب أخرى الحجاب ليس لأن أحدهم أمرها به، بل لأنها رأت في محجبة خلقاً كريماً فاقتدت بها. فالدعوة ليست مجرد كلمات، بل أفعال وردود أفعال وسلوك يومي يعكس العلاقة الصادقة بالله .

ومن أجمل الدروس في قصة يوسف عليه السلام أن الإحسان كان سِمَته في كل حال، سواء في قاع السجن مظلوماً، أو على عرش الملك قوياً. قيلت له نفس العبارة في موضعين متناقضين {إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٣٦) حين كان سجيناً، ثم تكررت على لسان إخوته وهم لا يعرفونه عندما كان ملكاً (يوسف: ٧٨) لم تغيره الظروف، ولم تتبدل أخلاقه، بل ظل ثابتاً على مبادئه.

- **وهذا هو التعريف الحقيقي للالتزام:** أن يكون العبد ثابتاً على الخير في كل الأحوال، سواء في المسجد أو البيت، مع الأصدقاء أو الغرباء، في الرخاء أو الشدة. أما المتلون الذي يتغير بحسب المكان والأشخاص، فليس من أهل الإحسان .

الطريق إلى النجاح في الدعوة يبدأ بالإحسان: إحسان في العبادة، وإحسان في المعاملة. فمن جمعهما، فتح الله له القلوب، وجعل في قوله وقعه، وفي أفعاله بركته.

الإحسان... جوهر الالتزام الحقيقي وشهادة الصدق

الإنسان الحق لا يكون بوجهين، ولا يتلون حسب المواقف. فمن كان محسناً حقاً، يجب أن يشهد له الجميع، في بيته كما في عمله، في المسجد كما في الشارع. لا يخدعك مدح الناس لك في مكان واحد إذا كان في مكان آخر يُقال عنك عكس ذلك تماماً. الالتزام لا يقتصر على المظهر العام أو الكلمات الرنانة، بل هو سلوك ثابت يظهر في كل بيئة، وكل علاقة .

- الاختبار الحقيقي للالتزام هو أن تتفق جميع الشهادات عليك، سواء في المسجد، أو بين أهلك، أو في عملك. لا تغتر بمديح الناس لك في مكان، بينما في أماكن أخرى يُقال عنك العكس. فالمؤمن الصادق هو من يثبت على أخلاقه ومبادئه في كل الأحوال، سواء كان في موضع قوة أو ضعف.

{إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} هذه الجملة لم تُقل ليوسف عليه السلام مرة واحدة فقط، بل قيلت له في حالتين متناقضتين تماماً: مرة وهو مظلوم في السجن، وأخرى وهو في أوج ملكه وسلطانه. وهذا يدل على أن المحسن لا يتغير بتغير الظروف، بل يبقى ثابتاً على قيمه ومبادئه، سواء كان في قمة الضعف أو في قمة القوة .

- وهذا هو الفرق بين الملتزم الحقيقي والمنافق. فالمنافق قد يظهر التدين في المسجد، لكنه في البيت سيئ المعاملة، أو في العمل غير أمين، أو في الشارع متكبر. أما الملتزم الحقيقي، فهو الذي يحافظ على نفس الأخلاق والسلوكيات في كل مكان، ومع الجميع، سواء كانوا أهله، أو أصدقاءه، أو حتى أعداءه.

المحسنون لا يخفون ولو حاولوا ذلك

كل إنسان يحمل في داخله سريرة، وهذه السريرة لا تلبث أن تظهر على ملامحه، وعلى فلتات لسانه. فإن كانت خبيئة الإنسان خيراً، أنار الله وجهه وجعل له القبول في الأرض، كما قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا } (مريم: ٩٦). فالقبول عند الناس ليس شيئاً يُشترى بالمال أو الشهرة أو التصنع، بل هو هبة من الله تُعطى للمخلصين الذين يعبدونه بصدق .

- لا حاجة لكثرة الكلام عن نفسك، دع أفعالك تتحدث عنك. الناس لا يتأثرون بالكلمات بقدر ما يتأثرون بالأفعال. قد تتحدث كثيراً عن الأخلاق والقيم، لكن ما يرسخ في أذهان الناس هو سلوكك وتصرفاتك. فالإحسان الحقيقي يشع من الإنسان دون أن يحتاج إلى ترويج أو دعاية .

يوسف عليه السلام... نموذج الإحسان في كل الظروف

في ظلمة السجن، كان يوسف عليه السلام مثالاً للإحسان. لم يكن غارقاً في حزنه وظروفه الصعبة، بل كان مثالاً للعبادة والصبر، وكان يخدم المساجين، ويساعد المحتاج، ويعود المرضى، ويحسن إلى الجميع. هذا ما جعله يكسب قلوب من حوله، حتى قالوا له : {إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} (يوسف: ٣٦)

وهذه قاعدة عظيمة في الدعوة : " اكسب القلوب بالإحسان قبل أن تدعوها بالكلام ". الناس لا يستجيبون لمن يعظهم فقط، بل يتأثرون بمن يعاملهم بحب ورحمة. لذلك، إن كنت تريد أن تؤثر في الآخرين، فابدأ بالإحسان إليهم، وكن لهم عوناً وسنداً، قبل أن تطلب منهم أن يسيروا على طريقك .

المحسن يُعرف حتى في الظلم والابتلاء

هناك فائدة عظيمة أخرى في قصة يوسف: الرؤى والأحلام تكثر عند المظلومين والمبتلين. فقد كانت الرؤى أنساً للمساجين الذين عانوا من الظلم. وهذه سُنّة إلهية، حيث يكون للأحلام دور في التخفيف عن القلوب المحزونة، وتكون بشارات لهم في وسط الألم .

وهنا تأتي نصيحة نبوية ثمينة : " انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أحرى ألا تزدروا نعمة الله عليكم " فلا تنظر إلى من هو في حال أفضل منك، بل انظر إلى من يعاني أكثر منك، فهذا يخفف عنك بلاءك، ويجعلك تدرك نعم الله عليك .

كن محسناً في كل حال

- لا تكن بوجهين، بل اجعل التزامك وأخلاقك ثابتة في كل مكان ومع الجميع .
- المحسن الحقيقي لا يتغير بتغير الظروف، فهو نفسه في السجن وفي الملك .
- القبول عند الناس ليس بالكلام، بل بالإحسان الحقيقي والعلاقة القوية مع الله .
- الإحسان هو مفتاح التأثير في الآخرين، وهو أقوى وسيلة للدعوة .
- في البلاء، تذكر أن هناك من يعاني أكثر منك، واستمد القوة من الصبر والرضا .

{إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ}.... فهل أنت منهم؟

- حكمة يوسف عليه السلام في الدعوة إلى الله

- في قصة يوسف عليه السلام، نجد نموذجًا رائعًا لحسن الدعوة وربط القلوب بالله بأسلوب حكيم ومؤثر. عندما جاءه صاحبا السجن يسألانه عن تفسير رؤياهما، لم يبادر مباشرة بالإجابة، بل استغل الفرصة ليهيئ قلوبهما للإيمان والتوحيد .

قال تعالى : {قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ } (يوسف: ٣٧). هنا يوسف عليه السلام لم يقل مباشرة : " سأفسر رؤياكما " ، بل ربط الأمر بالرزق الإلهي، وكأنما يمهد لما هو أعظم، وهو التوحيد .

التدرج في الدعوة وربط القلوب بالله

- لاحظوا كيف كان يوسف عليه السلام دقيقًا في كلماته، فقال { ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ } ، فنسب العلم إلى الله، مغرسًا في قلوبهما أن كل الخير والعلم من عنده سبحانه. بل تأملوا في أدبه الجم مع الله! لم يقل أبدًا أن الله أدخله السجن، بل قال : { وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ } (يوسف: ١٠٠)، مع أن دخوله السجن كان بتقدير الله أيضًا، لكنه لم ينسب إلا الإحسان إلى ربه .

هذا الأسلوب كان متأثرًا بتربية أبيه يعقوب عليه السلام، الذي قال له منذ صغره" : { وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ } (يوسف: ٦). فها هو يوسف، بعد سنوات طويلة، يعبر عن هذا التعليم بنفس الكلمات : { ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ }

استغلال الفرص لخدمة الدعوة

- بعد أن مهد لهما بهذا الأسلوب العميق، بدأ مباشرة بالدعوة إلى التوحيد، قائلاً : { إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ } (يوسف: ٣٧) .

رغم أن السؤال كان عن تفسير الرؤيا، إلا أنه لم يتعجل الإجابة، لأنه أدرك أن هذه فرصة ذهبية للدعوة، حيث كانا بحاجة إليه وسينصتان باهتمام .

استثمار الحاجة الدنيوية لمصلحة الدين

- ما فعله يوسف عليه السلام يبين أنه لا بأس بأن يستغل الداعية حاجة الناس إليه في أمور الدنيا، ليقربهم إلى الله، بشرط أن يكون ذلك بصدق وإخلاص .

مثال على ذلك :

- **الطبيب:** عندما تأتيه فتاة مريضة لكنها غير محجبة، يمكنه أن ينصحها بالحجاب بأسلوب الأب الحنون .

- **المدرس:** عندما يجلس الطلاب أمامه محتاجين إلى شرحه، يمكنه أن يوجههم بلطف عن الصلاة، التدخين، أو الأخلاق الحسنة .

- **هذا ليس إجبارًا،** بل هو استغلال ذكي للحظات يكون فيها القلب متقبلًا للنصح، تمامًا كما فعل يوسف عليه السلام في السجن، حين تحدث عن الإحسان والتوحيد قبل أن يفسر الرؤيا، مما جعلهم يستمعون إليه بانتباه واهتمام .

- الداعية الناجح هو من يعرف كيف يمهد للدعوة بأسلوب مؤثر
- التأثير الحقيقي يكون حين نربط القلوب بالله في كل شيء، حتى في أمور الدنيا .
- لا بأس باستغلال حاجة الناس للدعوة، لكن دون منٍّ أو أذى، بل بإخلاص ومحبة .
- الأدب مع الله سمة الصالحين، فننسب إليه الفضل والإحسان، ولا نتهمه بالبلاء .

- **هكذا كان يوسف عليه السلام... داعيةً حكيمًا، قبل أن يكون مفسرًا للرؤى!**

يوسف عليه السلام كان حكيمًا في دعوته، فلم يكتفِ بتفسير الرؤى لمن طلبها، بل استغل الفرصة ليُمهِّد للحديث عن التوحيد. عندما جاءه الفتيان يسألانه عن رؤياهما، بدأ بلفت انتباههما إلى أن تفسيره للرؤى ليس مجرد مهارة ذاتية، بل هو علم علَّمه الله له، فربط القلوب بالله منذ البداية. ثم استغل حاجتهما لتفسير الرؤيا ليطرح قضية التوحيد بأسلوب غير مباشر، دون أن يشترط عليهما الإيمان قبل الإجابة.

- **هذا يختلف عن موقف الغلام في قصة الساحر،** حيث كان يشترط على من يطلب منه الشفاء أن يؤمن أولًا، لأن حاجتهم كانت أشدّ، مما جعله يستثمر الموقف ليحقق أعظم فائدة للدعوة. أما يوسف عليه السلام، فقد وعى أن تفسير الرؤيا ليس حاجة ملحّة قد تدفع صاحبيها للإيمان فورًا، لذا اكتفى بتمهيد الحديث دون فرض شروط.
- وفي موقفه مع الملك، أدرك أن اشتراط أي شيء على الملوك قد يكون سببًا لنفورهم، لذا فسّر الرؤيا مباشرة دون أي مقدّمات. هذا الإحسان غير المشروط كان له أثر كبير في نفس الملك، فطلب أن يستخلصه لنفسه، مما مكّن يوسف لاحقًا من نشر الخير والإصلاح في أرض مصر.

- وهكذا، تعلّمنا هذه المواقف أن الدعوة تحتاج إلى حكمة، وفهم طبيعة الناس، واستغلال الفرص بأسلوب يناسب كل موقف. فليس كل موقف يتطلب أسلوبًا مباشرًا، كما أن ليس كل موقف يحتمل التلطف الزائد. المهم هو تحقيق الهدف الأسمى، وهو إيصال رسالة التوحيد بأسلوب يجذب القلوب ولا ينفّرها.

الحكمة في أساليب الدعوة

- ثلاثة مواقف: للحكمه فى الدعوه

١. الغلام في قصة أصحاب الأخدود: كان يشترط الإيمان أولًا قبل أن يدعو الله بالشفاء، مستغلًا الحاجة الشديدة للناس ليكسب إيمانهم، لكن دون إجبار، بل بإقناع .

٢. يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن: عرض عليهم قضية التوحيد قبل أن يفسر رؤياهما، دون اشتراط، مستغلًا فرصة الحديث لكنه لم يضغط، حتى لا يعرض دعوته للرفض .

٣. يوسف عليه السلام مع الملك: قدّم تفسير الرؤيا مباشرة بلا شروط، لأن الملوك لا يقبلون الاشتراطات، لكنهم يقدرون الإحسان .

الأسلوب اللطيف في الدعوة

كما فعل مؤمن آل ياسين، استخدم يوسف عليه السلام تلطفًا في خطابه، فلم يواجه قومه مباشرة بأنهم كافرون، بل قال : { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ } وهكذا يمكن للداعي أن يخاطب الناس بتلميح بدلاً من التصريح الجارح، كما في قول شخص :" نفسي أقوم أصلي، ما تيجي معي؟ "بدلًا من " لماذا لا تصلي؟ ".

إبطال حجة اتباع الآباء

واجه يوسف عليه السلام حجة المشركين الذين يتمسكون باتباع آبائهم، فقال إنه اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، مما يسقط حجة أن الآباء دائمًا على صواب، ويوجه الحوار إلى إقامة الدليل بدلًا من التقليد الأعمى .

أعظم النعم: التوحيد

التوحيد هو النعمة الكبرى التي يجب شكرها، فكل شيء دونها قد يغفره الله، أما الشرك فلا مغفرة له. ومن أعظم الكلمات التي قيلت في ذلك قول ربعي بن عامر : " إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ".

- الدعوة تحتاج إلى حكمة، وفهم نفسيات الناس، وتوظيف الأساليب المناسبة في الوقت المناسب. فمن الناس من يحتاج إلى شرط إيمان قبل النفع، ومنهم من يحتاج إلى تلميح، ومنهم من يكفيه الإحسان ليؤثر فيه.

- فن الدعوة إلى الله بالحكمة واللين

- الدعوة إلى الله تحتاج إلى أساليب حكيمة تناسب المخاطَبين، كما فعل يوسف عليه السلام في السجن، حيث لم يبدأ حديثه بالشكوى من الظلم، بل ركّز على أعظم نعمة، فقال : { ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ }

وهنا درس عظيم: حين نذكر النعم تهون الابتلاءات. فبدل أن نغرق في الأحزان، فلنتأمل نعم الله الكثيرة، وسنجد أنها تفوق الابتلاءات .

أسلوب التلطف في الدعوة

عندما خاطب يوسف صاحبي السجن، لم يقل "يا مجرمين "، بل قال : { يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ } .استخدم ألفاظًا تُشعرهم بالقرب دون أن يزكيهم، فاختار كلمات لطيفة دون أن يكذب، وهذه مهارة الداعية الناجح، كما نقول اليوم "شركاؤنا في الوطن "لتلطيف الحوار عند الدعوة .

إبطال حجة التقليد الأعمى للآباء

لما كان المشركون يتمسكون بحجة اتباع آبائهم، سبقهم يوسف بالحجة وقال : { وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ } (يوسف: ٣٨) . هنا يُسقط حجتهم قبل أن يطرحوها، فكأنه يقول : " إذا كان اتباع الآباء هو الدليل، فآبائي كانوا على التوحيد، فمن الأحق بالاتباع؟ " وهكذا ينقل النقاش من التقليد إلى إقامة الدليل العقلي .

الحجة العقلية على التوحيد

سألهم يوسف بمنطق بسيط :

{ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ }

فإن كانت الآلهة متعددة، فلا بد أن تختلف، وإن اختلفت، فستتنازع، وحينها لن تستقيم الحياة. ولكن الكون مستقر، مما يدل على أن الإله واحد، كما قال تعالى : { لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ } (الانبياء : ٢٢) .

ثلاث ركائز في الدعوة الناجحة

من دعوة يوسف عليه السلام نستخلص ثلاث أدوات أساسية للداعية :

١. **الإحسان:** تقديم النموذج الحي في التعامل والسلوك .

٢. **الأدلة العقلية:** مخاطبة العقول بالحجج الواضحة .

٣. **التأثير العاطفي:** مخاطبة القلوب بالكلام المؤثر .

- الداعية الناجح هو من يجمع بين هذه الثلاثة، فيكسب قلوب الناس وعقولهم، ويكون قدوة بأفعاله قبل كلماته.

فن الدعوة بالحكمة والتأثير النفسي

يوسف عليه السلام قدّم نموذجًا بديعًا للدعوة إلى الله، حيث جمع بين الإحسان في التعامل، والمنطق العقلي، والتأثير العاطفي، مما جعله يخاطب العقول والقلوب معًا .

١- التلطف في الخطاب

عندما خاطب رفاقه في السجن، لم ينفرهم أو يواجههم بقسوة، بل قال { يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ } لم يكونوا أصحابه المقربين، بل كانوا مشركين ومتَّهمين بجرائم، لكنه استخدم عبارة تجمع بين التودد والصدق، تمامًا كما نقول اليوم : " شركاؤنا في الوطن " لتهدئة الحوار عند الدعوة .

٢- التأثير النفسي العميق: اختيار الأسماء الإلهية بعناية

لم يكن اختيار يوسف لاسمي { ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ } اعتباطيًا، بل كان يحمل رسالة نفسية قوية تتناسب مع حالة المسجونين :

{ ٱلۡوَٰحِدُ } : لأن المسجون في شدته لا يلجأ إلا إلى الله، فقد تلاشت أمامه كل الأرباب التي كان يعبدها خارج السجن، ولم يبقَ له إلا الإله الحق .

{ ٱلۡقَهَّارُ } : لأن كل سجين يشعر بالقهر والظلم، ولا يجد من ينصره، فيحتاج إلى من يقهر ظالمه ويمتلك أمره. فالله هو القهار فوق كل ظالم، وهو الملجأ الوحيد لمن لا حول له ولا قوة .

٣- الحجة العقلية: تفكيك أساس الشرك

بعد التأثير النفسي، عاد يوسف إلى المنطق ليهدم فكرة تعدد الآلهة، فقال : { إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ } وهنا فضح زيف الآلهة، حيث أوضح أنها مجرد أسماء اخترعها البشر، وليس لها أي سلطان حقيقي .

ثم أشار إلى مغالطة التقليد الأعمى، فكما أنهم يبررون عبادتهم للآلهة باتباع الآباء، فقد سبقهم يوسف بنفس المنطق، لكنه قال : { وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ } (يوسف: ٣٨) وهكذا أسقط حجتهم قبل أن يطرحوها، وأثبت أن الأجدر بالاتباع هم الصالحون الموحدون .

يوسف عليه السلام جمع بين ثلاثة أركان أساسية في الدعوة الناجحة :

١. **الإحسان:** أن يكون الداعية قدوة بأفعاله قبل كلماته .

٢. **التأثير النفسي:** اختيار الكلمات التي تمس القلوب وتخاطب مشاعر المستمعين .

٣. **الأدلة العقلية:** تقديم الحجج المنطقية التي تهدم الباطل وتقيم الحجة .

بهذه الطريقة، يصبح الداعية مؤثرًا وناجحًا، يجمع بين العقل والقلب، ويقدم الإسلام في أجمل صورة.

فن الحوار في دعوة يوسف عليه السلام

يوسف عليه السلام استخدم أسلوبًا متكاملًا في الدعوة، حيث ردّ على ثلاث شبهات رئيسية بطرق عقلية مقنعة، مع توظيف التأثير النفسي والتلطف في الخطاب .

الشبهات الثلاث والرد عليها :

١- اتباع الآباء :

- الرد : { سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ }

- أي أنكم تتبعون آباءكم بلا دليل، وأنا آبائي كانوا على التوحيد، فليس الآباء حجة، بل الحق يُعرف بالدليل .

٢- اتباع أوامر الملوك:

- الرد : { إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ }

- الحكم الحقيقي لله، وليس للملوك الذين يأمرونكم بالشرك. والله، الملك الحق، أمر بعبادته وحده.

٣- اتباع الأكثرية :

- الرد : { وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }

- الحق لا يُقاس بالكثرة، بل بالدليل، ولو كان الحق مع القلة، فالواجب اتباعه .

منهج يوسف في الدعوة :

- **السلوك الإيجابي:** جذب الناس بأفعاله قبل أقواله .
- **التأثير النفسي:** اختيار الأسماء الإلهية بدقة (الواحد القهار) .
- **المنطق العقلي:** تفنيد حجج الشرك بالدليل .

بهذا الأسلوب، قدّم يوسف عليه السلام نموذجًا في الحكمة والإقناع، مهددًا قلوب السامعين لقبول الحق. ثم انتقل إلى تفسير الرؤيا، بعد أن هيأ عقولهم لتقبل رسالته.